غرائب تعاون الحيوان

من طبائع التمساح أن طائراً صغيراً اسمهُ القطقاط يدخل فاه التمساح ويلتقط فضلات الطعام من بين أسنانهِ والتمساح راضٍ بذلك مرتاح اليهِ لا يغدر بضيفهِ ولو أكل الطعام من فيهِ . وقد رأى بعض السيّاح التمساح مرأى العين ورأى هذا الطائر يدخل فاهُ ويخرج منهُ

ومن السهل أن يُكتب فصل طويل عن تعاون الحيوانات لا التي من نوع واحد أو من فصيلة واحدة لان هذه امرها في التعاون مشهور بل التي من فصائل مختلفة كالتمساح والقطقاط والطائر الذي يلتقط القراد عن البقر والابل . فقد قضت العناية أن يُسخّر بعضها لبعض فينتفع الواحد من الآخر ويردُّ لهُ صاعاً بصاع على غير ما هو شائع بين اكثر طوائف الحيوان والنبات من الجهاد الذي يُقضى بهِ على الالوف لنفع الواحد فيغتذي الطائر الصغير عائلة حشرة في يومهِ يلتهمها حيّة ولا يبالي كانها وزق حلال لهُ . ويقوم الانسان رب الحكمة والانصاف على هذه الطيور الصغيرة فيصطادها ويذبحها ويشويها ويأكلها ناعم البال . هذا ليس التعاون الذي نعنيهِ لانهُ ليس في مصلحة فريق واحد حسب الظاهر ولا في مصلحة الفريقين معاً

ذكر الاقدمون ان الثعلب يقيم في أجمة الاسد ينبئهُ بالخطر ويرشدهُ الى الصيد فيترك لهُ الاسد فضلات طعامهِ . ولو كان الامر كذلك لعددناه من باب تعاون الحيوان الذي كلامنا فيهِ. لكن المحققين انكروا الآن ما يخصُّ الثعلب من هذه المعاونة وقالوا انهُ يقتفي آثار الاسود ويأكل ما يفضل من طعامها ولكنهُ لا ينبئها بخطر ولا يرشدها الى صيد فهو طُفَيْليٌّ ينتفع ولا ينفع مثل كثيرين من أبناء آدم . إلاّ أن الاسود تفعل ما تفعل من تركها الطعام غير قاصدة نفعهُ ولا نفع غيرهِ . واذا التفت بهِ وهي جائعة افترستهُ كما تفترس الحملان فهي غير مشكورة على تركها الصيد لهُ كانها غير مأجورة

ومن هذا القبيل سمكة اسمها الربّان تتبع التنين وتأكل فضلات طعامهِ وكان المظنون انها ترشدهُ الى الطعام وتحذّرهُ من الخطر لكن ثبت الآن أنها لا تفعل شيئاً من ذلك بل تكتفي بمصاحبتهِ احتماء به لانها ما دامت على مقربة منهُ لم تجسر سمكة أخرى أن تدنو منها . وهي تلتقط أيضاً فضلات طعامهِ تهولها عناية الكفيل بقيها ويقوتها وقد لا يعلم شيئاً مما يفعل من المبرات

ومنهُ سمكة دقيقة تعيش في بدن الحيوان المعروف بخيار البحر وهي صغيرة لا سلاح

(١) طائر القطاط في فم التمساح

(٤) سرطان حامل شقيقتين

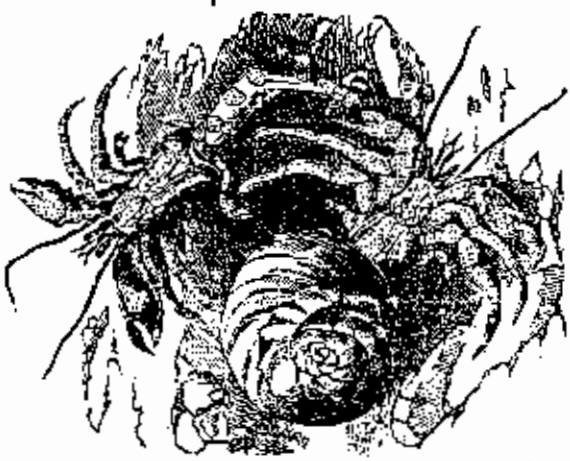

(٢) السرطان الناسك في القوقعة وخارجاً عنها

(٥) السرطان الناسك حامل صدفة يستظل بها

(٣) السرطان الناسك وشقيقة على قوقعته

(٦) عقرب حاملة زهرة تستظل بها

امام الصفحة ٢٦١

لها يقيها من اعدائها فتلجأ الى خيار البحر تدخل الثقب الذي يتنفس منهُ وتقيم في رئتيهِ ولا تخرج منها إلاَّ اذا عضَّها الجوع وصفا البحر وكانت قريبة من شاطئ ولا تكثر فيهِ الاعداء فانها تخرج حينئذٍ تلتمس الطعام. واذا شعرت بدنو العدو عادت أدراجها الى رئة حاميها ضيفاً غير محتشم لانها قد يأخذ منها اللؤم كل مأخذ حتى تجازي بالسيئة عن الاحسان فتلتهم جانباً من رئتهِ ولا تبالي. لكن خيار البحر صبور يحمل الضيم ويغتفر السيئات فتسترئتهُ حالاً من غير أذىً. والمورد العذب شديد الزحام ولذلك تكثر الحيوانات البحرية التي تضيف خيار البحر وتسمو في جسمهِ فيقبلها على الرحب والسعة وهو لا ينتظر اجراً ولا شكوراً. وما هو بمنفرد في هذا الكرم فالانسان يجري مجراهُ تدخل الديدان معدتهُ وامعاءهُ وتقيم فيها الشهر بعد الشهر والعام بعد العام وهو غير ناقم منها. وقد تقيم على ظاهر بدنهِ فلا يشكو منها إلاَّ اذا عادت في اذاهُ

هذا ولنعُد الى الحيوان الأعجم فنقول: —

قال الدميري في حياة الحيوان الكبرى « ان السرطان لا يتخلَّق بتوالد ولا تتاج انما يتخلق في الصدف » اي انهُ يتولد في الصدف مباشرةً. وهذا خطأٌ والحقيقة ان نوعاً صغيراً من السرطان يدخل الصدف ويقيم مع الحيوان الذي فيهِ وقد عرَف ذلك المصريون القدماء وذكرهُ ارسطوطاليس وبلينيوس. وقال القدماء ان السرطان كالحاجب لحيوان الصدف يرى العدو وينذرهُ بقدومهِ فيطيق مصراعيهِ ويجازيهِ على ذلك بالمأكل والمأوى. ولكن لا دليل على ان السرطان يقيم في الصدفة لهذه الغاية وانما يقصدها للسكن ولا تنقل وطأتهُ على حيوانها فيرحّب بهِ ولو لقي منهُ الاذى ما تعذَّر عليهِ الخلاص منهُ لان الحيوانات كلها تحاول الخلاص من كل طُفيلي فتتفل وتتحكك وتذبُّ الذباب عنها باذنابها. امَّا حيوان الصدف فلا يحرك اصبعاً لابعاد السرطان عنهُ. ويشبههُ في هذا الكرَم نحلة هندية سوداء تثقب سوق الاشجار وتصنع فيها غرَفاً بعضها فوق بعض تبيض فيها. ويعلق بهذه النحلة نوع صغير من النمس فلا تهتم بالتخلُّص منهُ بل تفتح لهُ جيباً صغيراً فوق حقويها وتدعهُ يقيم فيهِ وتضم طرفي هذا الجيب اذا شاءت حتى يتعذَّر على النمس الخروج منهُ فتحمل ضيفها على ظهرها ولا تبالي لان جيبها مبطَّن بمادَّة قرنية يعسر على النمس نخرها. وكأنها ادركت ان لا حيلة لها بابعاده عنها وانهُ اذا بقي لاصقاً بها فقد يتم بعضهُ مع بيضها ويأكلهُ فلجأت الى اخف الضررين وهو ان تحمل النمس في هذا الجيب وتقفل عليهِ بابهُ الى ان يتم غرضها من الحياة وهو وضع بيضها في بيوتهِ واعداد الغذاء الكافي لصغارها من العسل ونحوه. والنمس نفسهُ يلجأ الى الجيب ولا يعود يخرج منها. وهي تحفر البيوت ليبيضا وتضعهُ فيها والنمس يعلم

انهُ اذا وقع في تلك البيوت عرَضاً تعذَّر عليهِ الخروج منها فيموت جوعاً ولو استطاع ان يتغذى ببيض النحلة اولاً . فهذا الحليب مفيد لهُ ولصغار النحل لانهُ يقيهِ ويقيها من التلف

واكرم الحشرات وارحبها منازل النمل فترى الضيوف في بيوتهِ من انواع مختلفة تدخل وتخرج على الرحب والسعة عدا ما فيها من العبيد والجواري والخدم والحشم من ضيف كريم وغريب نزيل وخادم امين وطفيلي نقيل . ترى هناك المن الذي يفرز العسل يربّى ويحلب كالمواشي والنمل الذي من نوع آخر أسير في الحرب ومدرَّب على الخدمة كالعبيد. وترى ايضاً انواعاً من الناكب والخنافس تدخل وتخرج والنمل يلتقي بها فيقف قليلاً يتعرَّفها ثم يمرُّ في طريقهِ غير مكترث لها. اما هي فتعلم انها ما دامت في بيتهِ فهي في حرز حريز من الحشرات التي تسطو عليها

ويدخل قرى النمل ضيف آخر من نوع النمس وهذا لا يتنازل الى سكن البيوت بل مقرُّهُ أعناق دود النمل فان بيض النمل يصير دوداً قبلما يصير نملاً فيأتي هذا النمس ويضع بيضهُ على عنق الدود فينتفخ حالاً ويصير دوداً صغيراً

وكلما جاء النمل ووضع الطعام لدودهِ في الحليب الذي تأكل منهُ الدودة وهو في نحرها بين فيها ومدتها أكل دود النمس منهُ كفافهُ. ثم أن دودة النمل اذا بلغت حدها من النمو نسجت لنفسها شرنقةً وأقامت فيها الى أن تبلغ اشدَّها وتتخلق نملة وحينئذٍ تثقب الشرنقة وتخرج منها ويبقى دود النمس في الشرنقة وقد بلغ حدَّهُ من النمو أيضاً ودنا وقت صيرورتهِ حشرات طيَّارة فيأتي النمل ويجمع قشور الشرانق ويطرحها خارج قريتهِ ويكون دود النمس فيها وقد صار حشرات مجنحة كما تقدم فيطير في الهواء ويتزاوج وتعود اناثهُ الى قرى النمل وتبيض على أعناق بيضهِ كما تقدم ويدور الدور الى ما شاء الله

وهذا النمس ضيف محتشم وان كان طفيليًّا ولكن يقصد منازل النمل ضيفٌ آخر غير محتشم وهو لا يبيض على أعناق دود النمل بل على أعناق النمل نفسهِ ويتولد الدود من بيضهِ وينخر رأس النملة التي هو على عنقها ويأكل دماغها ثم يقطع رأسها عن بدنها ويقيم فيهِ كانهُ بيت لهُ الى أن يبلغ أشدهُ ويصير حشرة مجنحة . وحينما يكون في رأس النملة دئباً على أكل دماغها تكون هي قائمة على عملها ولو تململت وأبدت الضجر من وقت الى آخر حتى اذا فرغ من أكل دماغها وقطع عنقها بقي بدنها قائماً يحاول السير من غير رأس . وعلى ذلك ترى أمام قرى النمل كثيراً من رؤوسهِ المقطوعة. ولا يُعلم لماذا يحجم النمل السليم عن مساعدة اخوانهِ ولكن الباحث في طبائع الخلق بنوع تام يرى في الموت علاج المجتمع فانهُ اذا لم يمت بعض افراده لم يسُد الغذاء كافياً لهُ فيهلك كلهُ. فان كان النمل يدرك ذلك ويرضى بموت بعضهِ

عن طيب نفس لكي ينجو المجتمع كلهُ فيكون قد أدرك ما لم يدركهُ كثيرون من العقلاء حتى الآن

والسرطان بين حيوانات البحر كالنمل بين حيوانات البر في الذكاء والدهاء ومنهُ نوع صغير يسمى الناسك ترك البداوة ولجأ الى الحضارة ينتش على قوقعة مهجورة يسكنها ومن ثم اخطأ الدميري ومن جرى مجراهُ وظنوا انهُ يتولد في الصدف . وقد ظن هذا السرطان ان البيت الصدفي يقيهِ من الموت ونعمي قول القائل

والموت لا ينجيك من آفاتهِ حصن ولو شيّدتهُ بالجندلِ

فان السراطين الكبيرة التي تلتهم الصغيرة تستخرجه من هذا البيت وتطحن عظامهُ . والسمك القوي الانياب يلتقم البيت والساكن فيهِ . ولما رأى أن القوة تعوزهُ لجأ الى الحيلة فانهُ رأى حيواناً جميل المنظر قبيح المخبر يقال لهُ شقيق البحر يلصق بالصخور كالقطر وتنشعب من رأسهِ شعب كثيرة كالشعر او كالاهداب الوانهُ تزري بالوان الازهار بين احمر وأصفر واخضر وبرتقالي وبنفسجي لكنهُ سامٌّ حريف اذا أُغريت بهِ سمكة وحاولت اكل شيء منهُ لدغها طعنةً كالمقرب فلم تحاول ذلك مرّة اخرى . وكان السرطان الناسك اكتشف مزية هذا الحيوان فصار يقلعهُ عن الصخور ويلصقهُ بالقوقعة التي يقيم فيها فيأمن شرّ الحيوانات الكبيرة التي تصطادهُ . لكنهُ لا يستخدمهُ عنوةً بل يقوتهُ بدل حمايتهِ لهُ وذلك أنهُ اذا قبض على فريستهِ مزّقها قبلما يأكلها فينتشر الفتات منها في الماء والحيوان المشار اليهِ يتلمظ ماء البحر على الدوام ويبقي في جوفهِ ما فيهِ من الغذاء فيتغذّى من فضلات السرطان ويكتفي بذلك ولا يطمع باكثر . لكن انصاف السرطان لهذا الحيوان لا يبرئهُ من اغتصابهِ القوقعة التي يسكن فيها وهي ليست لهُ . وما ظالم الا ويبلى بأظلم فان دودة طويلة من ديدان البحر تخالفهُ الى القوقعة وتسكنها معهُ وكلما خرج ليتناول طعامهُ مدّت رأسها غير مدعوّة وقاسمتهُ الطعام وهو صابر عليها صبر الكرام لسببٍ لا يُعلَم حتى الآن فقد ظُنَّ قبلاً أنها تنظف منزلهُ من مبرزاتهِ وهذا سبب صبرهِ عليها ولكن اتّضح الآن أنها لا تفعل شيئاً من ذلك

والظاهر أن طائفة السرطان عرفت خواصّ شقيق البحر في كل البحار ففي بحر الهند سرطان يقبض على شقيقتين صغيرتين بمخليبهِ ويستخدمهما سلاحاً للهجوم والدفاع فيهجم بهما على الحيوانات الصغيرة فتنشلُّ من المادة السامّة التي في الشقيقتين فيقبض عليها ويفترسها واذا هجم عليهِ عدوّ يريد افتراسهُ قابلهُ بالشقيقتين واذاقهُ من الالم ما يعلّمهُ أن النجاة بالهرب . والظاهر أن الشقيقتين لا تتألمان من قبض السرطان عليهما بمخالبهِ أو انهما تكتمان الكمد وتظهران الجلد لاشتراكهما معهُ في المنفعة فانهُ اذا اصطاد حيواناً شاركهُ في اكلهِ على ما تقدّم وكثيراً ما ترى بعض السراطين وعلى ظهرها قطع من الاسفنج والنبات البحري ويُظَن

لاول وهلة أن هذه التوامي نمت من نفسها كما تنمو على الصخور . ولكن ليس الامر كذلك بل أن السرطان نفسهُ يقتلعها ويزرعها على ظاهر جسمهِ حتى يصير كقطعة من الصخر تما النبات والاسفنج عليها وغرضهُ من ذلك الحيلة على الحيوانات التي تفترسهُ حتى تظنهُ حجراً فلا تطمع فيهِ وعلى الحيوانات التي يفترسها حتى تدنو منهُ غير موجسة شرًّا . والسرطان يخلع قشرهُ مراراً وهو ينمو فيضطرّ أن يزرع النبات والاسفنج على ظاهره كلما خلع القشر القديم وتكوَّن لهُ قشر جديد . عملٌ شاقٌ يقتضي عناية ورويَّة ولكنهُ يقدم عليهِ من حداقتهِ وممارستهُ طويلاً فيمضي الى حيث يجد طحالب البحر ويقتلع قطعة منها بمخالبهِ ويمضغ طرفها ويمزجهُ بلعابهِ حتى يسهل عليهِ الصاقهُ بدنهِ وكلما الصق قطعة على جانب الصق قطعة اخرى مثلها على الجانب الآخر حتى تتغطّى قشرتهُ واذا ابت قطعة أن تلتصق أعاد مضغها ومزجها باللعاب حتى تلتصق جيداً فيلبس من النبات والاسفنج ثوباً لا يبلى ولا يضطرُّ الى تجديده الاَّ حينما يتجدد قشرهُ أو حينما يذهب الى مكان يسهل اكتشافهُ فيهِ . فاذا غطّى جسمهُ بالنبات مثلاً ومضى الى مكان ارضهُ مغطاة بالاسفنج وأحبَّ الاقامة فيهِ نزع النبات عن جسمهِ وزرع مكانهُ اسفنجاً حتى يسهل عليهِ الاختفاء بين الاسفنج . ولكن الطبيعة لم تتم نسجها لهُ فاعطتهُ هذا المقدار من الذكاء ولكنها حرمتهُ التمييز بين الالوان فقد يغطي بدنهُ بنبات أحمر اللون وهو قائم في مكان نباتهُ اخضر أو اصفر وكذا قد يغطيهِ بالاسفنج لانهُ مصاب بالعمى اللوني على ما يظهر ويؤيد ذلك انهُ ينزع لباسهُ اويلبسهُ نهاراً وليلاً في النور والظلام على حدٍّ سوى ويفعل ذلك بالدقَّة التامة ولو كان اعور او اعمى كأنهُ يعتمد على حاستي الشم واللمس لا على حاسَّة البصر

ولا تنتهي غرائب السراطين في لبس الثياب المنسقة بل منها ما يحمل مظلة فوق رأسهِ يتقي بها حر الشمس في البلدان الحارَّة وقد تكون هذه المظلة ورقة شجر كبيرة او صدفة او قشرة حيوان من الحيوانات القشرية

ولا يماثل السرطان في حمل المظلة إلاَّ العقرب فقد ذكر أحد الثقات أن بعضهم رأى عقرباً في عدن تدبُّ وهي ماسكة زهرة باحد قرنيها تظلل رأسها بها . والعقرب تكرهُ الحر فتخرج ليلاً في طلب فرائسها وتختبئ نهاراً في مكان ظليل والظاهر أن هذه العقرب ابعدت عن سربها فادركها النهار قبلما عادت اليهِ واذتها حرارة الشمس فقطفت الزهرة ورفعتها فوق رأسها تقيهِ بظلها وإلاَّ فلا وجه لتفسير عملها لانها لا تأكل النبات حتى تأكلها ولا تشرب الماء حتى تمتص عصارتها

هذا يسير من موضوع كلهُ فكاهات وغرائب ولا شيء الذ للانسان من درس الطبيعة